

الفيلسوف

عقيدته الفلسفية

أرسل الفيلسوف هوايتهد كلمة تحية إلى صديقه جون ديوى نشرت في الكتاب الذى تولى الأستاذ شيلب إصداره عن فلسفة ديوى عام ١٩٣٩ ، وجاء في استهلالها ما نصه :

« الفلسفة صناعة واسعة غير محدودة تحقق خدمات كثيرة لتقدم الإنسانية . وجون ديوى يجب أن يوضع فى مرتبة الذين جعلوا الفكر الفلسفى موافقاً لحاجات زمانهم ، وهو من هذا الوجه يرتفع إلى مصاف قدماء الرواقيين ، وأوغسطين ، والأكوينى ، وفرنسيس بيكون ، وديكارت ، ولوك ، وأوجست كومت . ولا تقوم شهرة هؤلاء القوم على مذاهبهم الخاصة التى يبتهج بها الدارسون ، وإنما كانت نتيجة أعمالهم أن تلقى معظم النظم الاجتماعية فى زمانهم دفعةً من التنوير يسرت لها تحقيق أقصى ما يمكن تحقيقه من أغراض . . . وقد أدى جون ديوى للحضارة الأمريكية خدمات شبيهة بذلك ، حين كشف عن الأفكار العظيمة المتصلة بعمل النظام الاجتماعى . . . » (١)

إنها تحية فيلسوف لفيلسوف ، تشبه تحية برتراند رسل لصديقه مما ذكرناه فى مقدمتنا لهذا الكتاب . ولا خلاف بين الدارسين على وصف ديوى بأنه فيلسوف ، ولكن الخلاف بينهم أهو الناطق بلسان الفلسفة الأمريكية أم لا . وهذه مسألة يقدرها الأمريكان أنفسهم . فى أعقاب الحرب الأخيرة عهد إلى الجمعية الفلسفية الأمريكية ، وأعضاؤها من أساتذة الفلسفة بأمريكا ، بأن تفحص حالة الفلسفة والدور الذى يمكن أن تقوم به بعد الحرب ، وأتمت اللجنة المشكلة عملها ،

Schilpp, p. 477. (١)

وأصدرت كتاباً عنوانه « الفلسفة في التربية الأمريكية » بحثت فيه وظيفة الفلسفة وأثرها في تنمية حياة حرة مفكرة في المجتمع . ونقل ديوى ما جاء في مقدمة تقريرها ، من أنه : « لا يوجد في موقفنا الراهن مذهب له سلطة مسلم بها يسمى " فلسفة " يمكن أن يزعم ناطقون أنهم مفوضون بالتعبير عنها . وإنما هناك فلسفات وفلاسفة وإنهم ليختلفون فلسفياً حول الأمور التي دعينا لبحثها » . ثم مضى يرد على هذه الدعوى .

وتصدى ديوى للرد على مزاعم الممثلين للجمعية الفلسفية ، يحمل في طياته التحدى لهذه الجماعة التي تفرقت كلماتها ، كأنه يريد أن يقول لهم : أنا الفيلسوف الناطق بلسان الفلسفة الأمريكية . حملت لواءها نصف قرن من الزمان ، ولا أزال أتقدم برايتها إلى الأمام . بل إن دعواه لا تقف عند حد تمثيل الفكر الأمريكي . بل تذهب إلى أبعد من ذلك ، إلى شق طريق الفلسفة في العالم أجمع .

فما هذه الفلسفة التي يبشر بها . ويطلب الناس باعترافها ؟ أتكونت فكرته عنها منذ بدء حياته الفكرية أم تغيرت فكرته عنها وتطورت ؟ إن الخطوط الرئيسية لفلسفة ديوى قد أودعها في كتابه « الديمقراطية والتربية » ويبدو أنه لم يعدل في هذه الخطوط بعد ذلك اللهم إلا في التفاصيل . ونحن نذكر حين بحثنا جانب المربي فيه أنه جعل من الفلسفة نظرية عامة في التربية . ذلك أنه أرجع الفلسفة إلى معناها الأصيل وهو محبة الحكمة ، أى الصلة بين الفكر والسلوك في الحياة .

فالفلسفة من حيث مادتها هي « محاولة الإحاطة أى الجمع بين التفاصيل التي تتصل بالعالم والحياة في كل واحد . وهذا الكل إما أن يكون وحدةً وإما أن ينزل بالتفاصيل الكثيرة إلى عدد صغير من المبادئ النهائية — كما هو الحال في

المذاهب الثنائية . وأما من حيث موقف الفيلسوف وموقف من يتقبلون استنباطاته فتم محاولة للتوصل إلى نظرة موحدة كاملة متسقة عن الخبرة ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً . وهذه الناحية يعبر عنها بكلمة " الفلسفة " أى حب الحكمة .

وبعد فإن الفلسفة متصلة اتصالاً مباشراً بالحياة مما يميز الفلسفة عن العلم . وهذه الصلة التي تربط بين الفلسفة والحياة هي التي أفضت به إلى القول بأنها نظرية عامة في التربية .

وفي أعقاب الحرب العظمى الأولى ذهب ديوى إلى اليابان وألقى محاضرات جمعها في كتابه الذي سماه « تجديد في الفلسفة » لم ييسط فيه نظرية جديدة بمقدار ما استعرض تاريخ المذاهب الفلسفية الكبرى ناقداً إياها ، ومبيناً التيارات الجديدة التي أفضت إلى الموقف الحاضر للفلسفة . وقد نعى على المذاهب القديمة الموروثة عن اليونان فصل النظر عن العمل مما أدى إلى ظهور الثنائيات المشهورة مثل الجسم والعقل ، والمادة والروح ، مع رفع المثالية عن الواقعية ، والروحانية على المادية ، والنفس على الجسم وهكذا . ثم وقف عند بيكون وامتدحه لأنه فتح باب العلم الحديث ، وجعل العلم « قوة » يتسلح بها الإنسان في هذا العالم . ثم تحدث بعد ذلك عن التجديد في المعرفة وفي المنطق وفي الأخلاق وفي الاجتماع والسياسة ، مطالباً بتطبيق المناهج العلمية على الأمور الإنسانية .

كان ذلك الكتاب بذور بناء فلسفي جديد اكتمل بعد عشر سنوات . ففي عام ١٩٣٠ نشر في مجلة « فورم » مقالة بعنوان « عقيدتي الفلسفية »^(١) تشبه ما نشره من قبل عن عقيدته التربوية . إنها دستور الفلسفة . وأساسها الذي تقوم عليه . يتكون هذا الدستور من عدة مبادئ هي الإيمان في الخبرة لا في سلطة فوقها ووراءها ؛ وأن رقى العلم والصناعة نشأ من الاعتماد على فلسفة الخبرة ؛ وأن الفرد والجماعة هما المحور الذي تدور عليه الخبرة ؛ وأن ما تم من رقى في العلم والصناعة على أساس الخبرة يجب أن يتم في الدين والأخلاق والسياسة كذلك ،

(١) انظر ترجمة هذه المقالة كاملة في النصوص .

ومر هذا الوجه كانت مهمة الفلسفة إخضاع هذه الميادين الإنسانية لأخيرة لمناهج البحث العلمية .

ومن الواضح أن الخبرة هي أساس هذه العقيدة الفلسفية . ولأجل ذلك سمي ديوى فيلسوف الخبرة ، كما سمي مذهبه بالتجريبية . وقد اتجه هذا الاتجاه قبل العقد الثالث من القرن العشرين ، إذ نشر سنة ١٩٢٥ كتاب « الخبرة والطبيعة » ثم نشر سنة ١٩٣٤ كتاب « الفن كخبرة » وفي سنة ١٩٣٨ « الخبرة والتربية » . وما هو في « عقيدته » يسطر الفلسفة التي تمثل مذهبه في ذلك الحين ، ويرجعها إلى الخبرة . وأكد هذه العقيدة سنة ١٩٣٨ حين نشر مقالا في كتاب « الفلاسفات الحية » ، بدأه بقوله : « إن مساهمتي في المقالات الأولى لكتاب « الفلاسفات الحية » أبرزت فكرة الإيمان في إمكانات الخبرة باعتبار أنها صميم فلسفتي . ولقد قلت بمناسبة هذه المساهمة : وسيظل الأفراد دائما مركز الخبرة وكما لها . ولكن ماهية الفرد الواقعة بالفعل في حياة خبرته تعتمد على طبيعة الحياة الاجتماعية وحركتها^(١) . ولم أغير إيماني في الخبرة ولا عقيدتي أن الفردية هي مركزها وكما لها . ولكن حدث تغيير في التأكيد ، من حيث أنني أود الآن أكثر من أى وقت مضى أن أؤكد أن الأفراد هم العوامل النهائية الفاصلة في طبيعة الحياة الاجتماعية وحركتها^(٢) .

وفلسفة الخبرة ولو أننا عرضنا لها من قبل عند الحديث عن التربية إلا أنها تستحق منا تفصيلا أوسع في حديث نرجئه إلى موضعه . والفكرة التي يعرضها في عقيدته الثانية^(٣) تدور حول الفلسفة السياسية، أيتجه

(١) يشير هذا النص الذي اقتبسه إلى « عقيدتي » التي نشرها عام ١٩٣٠ .

(٢) نقلا عن كتاب « البرجماتية والثقافة الأمريكية » ١٩٥٠ ، ص ٣١

Pragmatism and American Culture, edited by Gail Kennedy, Heath and Company, Boston, 1950.

(٣) أى « عقيدتي what I believe التي نشرها عام ١٩٣٨ ، وقد رجعتنا إلى النص في كتاب « البرجماتية والثقافة الأمريكية » ص ٣١ - ٣٥ .

نحو الديمقراطية أم نحو الاشتراكية ، أياكون الفرد هو المحور الذي تدور عليه الحياة الاجتماعية ، أم أن المجتمع هو الأساس ومصلحة الأفراد تأتي في المحل الثاني . ولما كان العالم كله قد أخذ يتجه نحو الاشتراكية ، في الصناعات والزراعة والطب وتأميم غير ذلك ، فقد خشي ديوى أن تزول الديمقراطية وتهدم أركان الفردية التي نصب نفسه للدفاع عنها منذ فجر حياته الفكرية ، وطبقها أول الأمر في التربية . ولهذا السبب مال بالتأكيد إلى جانب الفرد وألح في ذلك ليعبرز أهميته .

الفلسفة والحضارة

وللفلسفة دورها في تاريخ الحضارة ، بل لا فرق بين الفلسفة وبين دورها في تاريخ الحضارة . فإن أنت اكتشفت الوظيفة الصحيحة والوحيدة للحضارة فقد حددت وعرفت الفلسفة ذاتها . وإن أنت حاولت تعريف الفلسفة بأى طريق آخر فقد ضللت .

كتب ديوى هذا الرأى الذى يصل بين الفلسفة والحضارة في بحث قدمه في مؤتمر الفلسفة الدولى الثالث سنة ١٩٢٧ ، وظهر بعد ذلك في عدة مجلات ، ثم طبع في كتاب مع مقالات أخرى سنة ١٩٣١ ، واتخذ من عنوان المقالة عنواناً للكتاب (١) .

يقول في هذا البحث إن الفلسفة كالسياسة والأدب والفنون الجميلة هي نفسها ظاهرة من ظواهر الحضارة الإنسانية . وعلاقتها بالتاريخ الاجتماعى وبالحضارة علاقة ذاتية ملازمة . وليست فلسفة الفيلسوف إلا مرآة لمشكلات زمانه ، وكذلك اليوم فهي أثر للصراع بين النظم الثقافية القائمة . إنها صراع بين القديم والجديد . وليس ظهور الفلاسفة بمذاهب جديدة مثل بيكون وديكارت وكانط إلا دليلاً على التوفيق بين الموروث من التقاليد وبين النزعات العلمية

الجديدة مما لا يتفق مع جملة التقاليد الموروثة . والفلاسفة جزء من التاريخ ، واقعون في شراكه ، وقد يكونون خالقين إلى حد ما للمستقبل ، ولكنهم في الوقت نفسه من خلق الماضي .

أما القائلون بأن الفلسفة تبحث عن الحقيقة الأزلية المطلقة بصرف النظر عن تأثير الزمان والمكان ، فهم مضطرون إلى التسليم بأن للفلسفة كياناً تاريخياً ، وطريقاً زمانياً ، ومواقع في شتى الأمكنة من العالم .

وإذا نظرت إلى تاريخ الفلسفة من أى زاوية وفي أى عصر وجدت تراثاً ثقيلاً قد انحدر إليها مع الماضي البعيد ، كما تجد اهتمامات تشغل الأذهان وتكاد تخلب الأبواب وتسحر العقول . فتدفعها إلى الثورة نحو قم جديدة في الحياة . ففي أتبنا كانت المشاغل التى شغلت أذهان الفلاسفة سياسية وفتية ، وهى اليوم مشاغل اقتصادية وعلمية . ولكن لا بد وراء ذلك من عمل فكرى يؤدى ، وهو الفلسفة .

للفلسفة إذن صلة وثيقة بتاريخ الثقافة وبالتغيرات المتتابعة فى الحضارة ، تغذيتها تيارات من التقاليد يمكن تتبعها فى الأوقات العصيبة إلى منابعها كى يتلقى التيار وجهة جديدة . ويخصبها تخمر الاختراعات الحديثة فى الصناعة ، والكشوف الجديدة على وجه الأرض . والفتوحات الجديدة فى العلم . ولكن الفلسفة ليست مجرد انعكاس سلبى للحضارة التى تستمر من خلال التغيرات ، وتتغير من خلال الاستمرار . إنما هى نفسها تغير . والنماذج التى تتكون عند اتصال الحديد بالقديم هى إلى أن تكون نبوءات أدنى إلى أن تكون تسجيلات ، فهى سياسات ومحاولات لرسم ألوان تالية من التقدم .
فالفلسفة تدل على تغيير فى الحضارة .

مهمة الفلسفة ووظيفتها

ولنرجع الآن إلى ما بدأنا به هذا الفصل لنرى كيف تصور ديوى الفلسفة

بعد الحرب الأخيرة ، ما غرضها ومهمتها : وما صلتها بمشكلات الناس في العصر الحاضر .

إنها كلمته النهائية في الفلسفة ، التي قالها وقد جاوز الثمانين .

إنها تمثل ثمرة تجاربه في الحياة ، ومراجعاته لشتى الفلسفات والأفكار ، وخلاصة ما استمدته من صلة بعالم تطور من عصر البخار ، إلى الكهرباء ، إلى الذرة والفضاء .

لقد بدأ بفلسفة في التربية ، ثم انتقل إلى فلسفة في الخبرة ، وهو الآن في أواخر حياته ينتهي بفلسفة في القيم .
القيم هي لب الفلسفة وصميمها .

لقد انتهى ديوى كما انتهى أفلاطون من قبل إلى أن صميم الفاسفة هو البحث في الخير ، وهي المحاضرات التي كان يلقيها أفلاطون في أواخر حياته ولم يدونها . ولكن ديوى اقتحم قلب هذه المشكلة الدقيقة ، مشكلة القيم ، وأعلن فيها رأيه الذي أقامه على المناهج العلمية .

والفلسفة إنما تبحث في القيم ، لأن أكثر اشتغالها بالإنسان وسلوكه في الحياة ، ولاسلوك عند الإنسان العاقل بغير اتجاه إلى يمين أو إلى يسار ، وهذا الاتجاه يقتضي معرفة قيمة ما نحن مقدمون عليه ، وهذه القيمة هي التي تحدد السلوك وتوجهه .

وقد نعى ديوى^(١) على أصحاب التقرير الفلسفي الذي أشرنا إليه قوطم بعدم وجود مذهب له سلطة مسلم بها يسمى « فلسفة » ، بل توجد فلسفات ويوجد فلاسفة يختلفون فيما بينهم فلسفياً . على العكس توجد فلسفة واحدة لها مذهب وسلطة مسلم بها ، وناطق بلسانها . ولم تظهر هذه الفلسفة في تقرير أساتذة الفلسفة لأن المذهب الذي يتبعونه أو المذاهب التي يعتنقونها ، ترجع إلى سلطة

(١) فيما يلي تلخيص واف للمقالة التي كتبها ديوى لكتاب مشكلات الناس ، ونحن نقلها

من الطبعة الثانية التي صدرت بعنوان « فلسفة التربية » سنة ١٩٥٦ ، من صفحة ٣ ، إلى ٢٠

عليها ، وإلى الوحي الغيبي ، وهي دليل على الهوة التي تفصل بين الماضى والحاضر ، إذ لا حاجة فى الوقت الحاضر إلى سلطة عليا ، من فوق ، لأن السلطة التي يعتمدون عليها مستمدة من الحياة نفسها وما يكسبه الإنسان فيها من خبرة . وكانت الفلسفة فى العصر الوسيط لاهوتاً يصدر عن سلطة غيبية فوقطبيعية . ثم نشأت الثنائية بين الفوقطبعي وبين الدنيوي ، وظهرت الثنائيات المشهورة فى تاريخ الفلسفة . وقد ورث أصحاب التقرير فلسفة العصر الوسيط فذهبوا إلى أن الفلسفة هى العلم « بالوجود » و « بالحقيقة » وكلاهما أشمل وأعمق مما يمكن أن تقوم العلوم الحديثة وما لها من مناهج ببحثه . ذلك أن العلم الحديث يتعلق بالمتغير . بالداخل فى الزمان ، بالحدث ، على حين طلبت للفلسفة من قديم معرفة الأزلى والضرورى بذاته .

ولكن الحياة المعاصرة أخذت تتغير فى كل شىء عن مزاوالات الحياة قديماً . فى السياسة انفصلت الكنيسة عن الدولة . وفى الصناعة والتجارة ابتدعت طرق جديدة بدلا من القواعد القديمة الثابتة . وظهرت ضروب من الاهتمامات وألوان من التسلية لا عهد للناس بها . وفى العلم هزت المناهج الحديثة أركان علوم الفلك والطبيعة والحياة والأشروبولوجيا .

هناك إذن هوة سحيقة بين العلوم الوضعية واللاهوتية ، بين الدنيوي والسماوي ، بين الاهتمامات الدنيوية والأزلية . وعلى الرغم من هذا التقدم المائل فى العلوم والاقتصادات لا تزال الفلسفة تبحث عن الحقيقة الثابتة .

ونحن إذا رجعنا إلى الفلسفة قديماً . زمان سقراط مثلا ، رأينا أنها كانت حجة الحكمة ، والبحث عنها ، ولكنها لم تعد اليوم كذلك ، لأن الحكمة هى التطبيق البصير لما نعرفه فى السلوك على أمور الحياة . أما الفلسفة اليوم فقد انزلت عن الحياة ، وأخذ الفلاسفة يشتغلون بمباحث ميتافيزيقية ، مثل نظرية المعرفة ،

في أسس المعرفة وإمكانها وشروطها . ولكن ما الفائدة أن نبحث عن « شروط المعرفة » مغفلين هذه المشكلة الهامة ، ألا وهى « نتائج » المعرفة الواقعة والممكنة؟. وما نتائج العلم في العصر الحاضر ؟ ولماذا تقصر المناهج العلمية على العلم وحده ؟ المناهج العلمية تقرر الظروف الاقتصادية المحسوسة التى يعيش الناس في ظلها ، ولكنها لا تخدم الأغراض الأخلاقية والإنسانية التى تخدم القيم الحاضرة . من أجل ذلك تركت هذه الأمور الإنسانية وهى الأهم تحددها العادات والأهواء ومصالح الطبقات والتقاليد المتجسدة في النظم المختلفة ، وهذه كلها واقعة في أيدي أصحاب القوة والسلطان، الذين لا يحفلون إلا بمصالحهم الخاصة، التى تقتضى ارتفاعهم على غيرهم .

وقد ظهرت حركة جديدة في الفلسفة بدأت من نهاية القرن الماضى ، ولا تزال مستمرة ، تستبقي الفكرة القائلة بأن الفلسفة تبحث عن الحقيقة العليا في ظل مثل هذه الظروف . وسبيلها إلى ذلك الرياضيات ، والرمزية التى تشبه الرياضة ، مستبعدة^١ مظهر الفلسفة الذى كان يسمى بالبحث عن الحكمة^(١) .

تنكر هذه الفلسفات الحديثة إمكان العقل معرفة الأمور السياسية والأخلاقية وعلى الجملة الإنسانية ، وتذهب إلى أن الأمور العملية للناس مسألة قيم وتقدير ، وبناءً على ذلك فهى بطبيعتها عاجزة عن التقدير الفكرى على أساس عقلى .

وهذه الحركة مستمدة أكبر الظن من الإغريق الذين رفعوا النظر على العمل ، والعمل موضوع التغيير لا الوجود الثابت . وترغم هذه الفلسفة الجديدة أن الأمور الأخلاقية لأنها تتعلق بالقيم الذاتية أو الأغراض في ذاتها ، فهى خارجة بالكلية عن نطاق أى نوع من المعرفة .

ويقول قائلهم : إن أفعال الناس تتبع نظرياتهم عن العالم والحياة الإنسانية

(١) من الواضح أن ديوى ينتقد الفلسفة القائمة على أسس رياضية ، والتي يمثلها برتراند رسل بوجه خاص ، وسنعرض لهاتين الوجهتين من النظر بالتفصيل عند الكلام عن ديوى المنطق .

وإلى ما هو خير وشر . وأن الخير والشر يرجعان إلى ما نحب ونكره . وما نحبه أو نكرهه من الأمور « الشخصية » الخاصة التي نعجز عن الحكم عليها على أسس « موضوعية » . هذا إلى أن ما نحب وما نكره أمور تستعصي على التغيير بالمعرفة ما دامت هذه الأمور تعيش في عزلة وخفاء بين الفرد ونفسه . وقد يمكن تقدير القيم الخارجية لأنها ليست سوى وسائل لا غايات حقيقية ، ومن هذا الوجه يمكن تحديدها بمناهج تخضع للفحص العلمي . ولكن الغايات الحقيقية التي تخدمها هذه الغايات الظاهرة فإنها من الأمور التي تحبها أو تكرهها الجماعات والطبقات والنحل والأجناس .

مهما يكن من شيء فقد برزت مشكلة القيم والتقدير إلى الصف الأول وأصبحت مركز الاهتمام في الفلسفة . وفي الوقت نفسه لا يمكن إنكار العلم وما بلغه من تقدم وفتوح . ولقد كانت الفلسفة في الزمن القديم تتخذ من الغيبية والفوقطبيعية مرجعاً وملاذاً . غير أن الفلسفة الجديدة ، التي يدين بها جون ديبوي ويشر بها تفرق عن القديمة في أن غاية الفلسفة ومهمتها هي البحث عن الحكمة وعن الغايات والقيم التي توجه النشاط الاجتماعي . ومن جهة أخرى يجب الابتعاد عن الحقائق الأزلية الكلية التي كنا نعدها الأساس الذي يمدنا بطرق السير في البحث . والاعتماد على المناهج العلمية التي نجحت في العلوم الطبيعية والحيوية . وإذا أبعدنا هذه المعوقات استطاعت المناهج العلمية أن تبحث الأمور الاجتماعية والإنسانية .

هذه الحركة الجديدة تسمى البرجماتية تارة ، أو التجريبية تارة أخرى ، أو الأدوات تارة ثالثة . وليس المهم أسماء هذه المذاهب بمقدر ما تحمله من أفكار . تعترف البرجماتية أن العلم لا يزال في طفولته ، وأن المنهج العلمي لم يصل بعد إلى تمام للنضوج ، ولن يبلغ المنهج كماله إلا حين يشمل الأمور الإنسانية . ومصدر الشرور اليوم راجع إلى عدم التوازن في تطبيق منهج البحث على كل شيء ، لأنه يطبق على العلوم فقط . ومهمة الفلسفة الاشتغال بالمشكلات الناشئة

عن هذا الانفصال ، بين منهج يطبق على العلوم وآخر يطبق على الإنسانيات .
 وظيفة الفلسفة اليوم أن تتصل بمشكلات الساعة في الوقت الحاضر . واليوم
 نجد أن فتوحات العلم كلها تعتمد على علاقات زمكانية ، لها صلة بالزمان
 والمكان . وذلك على العكس من فلسفات المطلق التي تجعل المطلق فوق الزمان
 والمكان . وجميع الأشياء علمية كانت أم اجتماعية تقوم على علاقات زمكانية ،
 ومن السخف أن نفترض أنها تنهى عند الجزئيات ، على العكس إنها تتحرك دائماً
 نحو العام بشرط أن يتصل العام بعلاقات أوسع . حتى لا يعوم المرء في فراغ
 لفظي . فالفلسفة الجديدة تستخدم المناهج والوسائل للبحث الصحيح كأدوات
 لامتحان القيم التي تعمل اليوم على تنظيم العادات الإنسانية والنظم المختلفة .

وأول مهمة للفلسفة في الوقت الحاضر أن تقوم بتنظيف بيتها أولاً ، وذلك
 بأن تتخلص من مذاهب فلسفية موروثه تعوق التقدم الإنساني . ومن أمثلة هذا
 التراث البالي الفصل بين العقل والمادة . ورفع المثالي والروحاني إلى قمة الوجود ،
 والخط من كل ما هو مادي وديوي إلى أدنى منزلة . وقد نشأ هذا الفصل في
 الفلسفة انعكاساً للفصل السياسي والاقتصادي بين الطبقات . كان العبيد والصناع
 يشتغلون بالمهن المادية ، والمواطنون الأحرار بالعلوم النظرية . ولا تزال النظرة إلى
 الأعمال المهنية اليوم أقل شأناً من الاشتغال بالسياسة مثلاً . لقد ورثنا الفصل بين
 السياسة والأخلاق وبين الاقتصاد والتجارة ، ومن وظيفة الفلسفة اليوم الجمع
 بينهما .

وتتصل بمهمة تنظيف الفلسفة بيتها إلغاء الثنائية التي تفصل بين القيم
 الموضوعية والذاتية ، بين الغاية والوسيلة ، وإلغاء النظر الذاتي إلى القيم على أساس أنها
 شخصية .

وهذه هي المهمة التطهيرية .

والمهمة الثانية للفلسفة هي النقد . ولا غرابة أن يتزع ديوي ناحية الفلسفة
 النقدية وهو الذي درس أول ما درس كانط . غير أن فكرة النقد عنده تختلف

عن فكرتها عند صاحب نقد العقل الخالص . كان كانط يقصد بالنقد النظر في العمل البشرى وتحليله لأنه أساس المعرفة ، والطريق الموصل إليها . ولكن ديوى يرى في العقل رأياً مختلفاً . أنه لا يتكون من مقولات أولية سابقة على الخبرة ، بل هو أداة من أدوات الخبرة . والفلسفة في حاجة إلى نقد منظم وشامل للمناهج السائدة في العلوم الاجتماعية ، كما بدأ العلم بالبحث في مناهجه وسار في الطريق الموصل حقاً إلى المعرفة الصحيحة . والنظر في هذه المناهج ، وامتحانها ، واتباع طريقة المحاولة والخطأ ، لا يمكن أن يقوم به فرد واحد ، وإنما يحتاج إلى تعاون المشتغلين بالفلسفة في جميع أنحاء العالم . لقد كان العلم الطبيعي منذ ثلاثة قرون في موقف يشبه موقف الفلسفة اليوم . ومن أجل ذلك تحتاج إلى زمن وصبر وجهد لتغير مناهجها والأخذ بنظريات وفروض جديدة . وفي هذا البحث التمهيدى ينبغي أن نستبعد الفكرة القائلة بأن المعرفة خارج النشاط الاجتماعى وأنها تفرض عليه فرضاً ، بل المعرفة هي ذاتها صورة من هذا النشاط كالزراعة أو النقل . ولما كانت فكرة « العقل » قد اتصلت من قديم بنظريات المعرفة ، وكذلك فكرة « الذات الفردية » ، فيجب استبعادهما من مجال الفلسفة . أما الطريق الصحيح للمعرفة فهو الملاحظة المنظمة للظروف الطبيعية والبيولوجية والاجتماعية التى بها تسير المعرفة .

هذه خلاصة الدستور الفلسفى الذى وضعه ديوى في مقدمة كتابه « مشكلات الناس » وهو دستور يميل بالفلسفة إلى جانب الحكمة ، وينحو بها ناحية القيم الإنسانية . وقد نقل ديوى كلمة جوزيا رويس التى يقول فيها : « إنك تتفلسف حين تتأمل ناقداً ما تعمله في عالمك . وما تعمله هو قبل كل شيء أن تعيش ، وأن تعيش يتطلب إيماناً وعواطف وشكوكاً وشجاعة . والفلسفة هي البحث النقدى فيما تعنيه هذه الأمور وما تستلزمه » . ثم عقب على ذلك بما فحواه إننا نعيش الآن في عالم يبدو غريباً عنا أكثر منه قريباً منا ، وفقد الفرد ثقته في غيره وأصبح يرتاب فيه ويتعد عنه . إننا نحتاج إلى أن يكون للعالم الذى نعيش فيه معنى

وقيمة ، وكأنه بيتنا الذى نلوذ به ، لا أن نهرب منه إلى عالم آخر .
لقد خلقنا فى هذا العالم ، وفيه نعيش ، وعلينا أن نعمل على رقيه وتحسينه
وتجمله وتأمينه . ومهمة الفلاسفة أن تقوم بهذا الجهد المضنى .
إنها فلسفة تفاؤل ، على عكس فلسفات التشاؤم التى سادت فى القرن
التاسع عشر . وفى القرن العشرين ، تبشر بالويل والثبور والشر .
ولقد وضع ديوى أمله فى التربية ، وفى الحضارة . وفى العلم ليأخذ بيد
البشرية فى طريق الرقى والتقدم .